

مِصْرٌ : مَفْتَبَةُ الْغُرَاةِ

المراجع الأجنبية

- Pierre Jouguet* : Précis d' Histoire d' Egypte
Bogumil Goltz : Provincial en Egypte
A. Moret, G. Davy : From Tribe to Empire.
James Breasted : The Origins of Civilisation
J. de Morgan : Recherches sur les origines de l'Egypte.
A. Moret : Le Nil et la Civilisation Egyptienne
Gordon Childe : L'Orient Préhistorique
André Maurois : Histoire d'Angleterre
Lavisse : Histoire de France
Alexandre Moret : L'Egypte Pharaonique
Gabriel Hanotaux : Histoire de la Nation Egyptienne
Pierre Jouguet : L'Egypte Alexandrine
Victor Chapot : L'Egypte Roumaine
John Knox : The First Blast of the Trumpet against the Monstruous Regiment of Women
Charles Roux : Bonaparte Gouverner of Egypt
Berthier : Relation des Compagnes du General Bonaparte en Egypte et en Syrie
De la Jonquière : L'Expédition d'Egypte
Ninet : Orabi Pacha
Broadly : How We defended Orabi

والمراجع المشار إليها في باب « أهداف العمل لمصر »

المراجع العربية

- عبد القادر حمزة : على هامش التاريخ المصري
هند اسكندر عمون : تاريخ مصر
عزيز خانكي : اسكندر الأكبر
ابراهيم سيف الدين : مصر في العصور القديمة
الحرثي

في مصر خرافة اثبتة زعم ان المصريين قد استعمرتهم شعوب عديدة غزوا مصر من الشرق والغرب والجنوب . وأن مصر قد ظلت منذ فجر التاريخ « مستعمرة » لتلك الشعوب التي غزتها على التوالي . . . ! وهذه الخرافة — التي سنثبت الآن أنها لا سند لها من التاريخ بل أن التاريخ ينطق باختلافها — قد روجها في مصر نفر من ضعاف النفوس الذين تلقوا بعض فتات المستعمرين الأوروبيين في القرن الماضي والقرن الذي نعيش فيه ، ولا شك أنها ذاعت في فترة الضعف التي عانتها مصر في عهد الخديوي توفيق وأوائل عهد عباس لأنه لا يعقل أن تضيع مثل هذه الخرافة في عهد كهده محمد علي كانت ترتعد أثناءه أوروبا فرقا من انتصارات الجيش المصري . الذي كان عماده الفلاح المصري الصميم . وهذه الخرافة التي تزعم أن هذا الفلاح المصري قد قبل — دائماً — الضيم ورضى بذل الاستعمار كانت تظهر في العهود التي تصاب أثناءها مصر بضعف طارئ . فقد قيل في خطاب خاص أرسل في القرن الثالث قبل الميلاد « لا تظن أنتي فلاح مصري » (١) .

ولا يزال بعض الجهلاء بتاريخ مصر . وبحقيقة قيمة هذا الفلاح المصري يعتبرون أن الانتساب اليه سبة ! بعد أن نجحت سياسة الاستعمار في إيجاد طبقة « بيروقراطية » بين الموظفين الذين يقيمون في المدن ويتناولون مرتباتهم من كد ذلك الفلاح ويخيل إلى بعضهم — لجهلهم — أن القيام بعلاجه كأطباء أو تصميم الترع التي تروى أرضه كمهندسين . أو تعليم أبنائه كمدرسين . أو التحقيق معه عند اتهامه كضباط إنما هو منة وفضل وليس أول واجب من واجباتهم كخدام لذلك الفلاح ، الخلية

أولى للشعب المصرى ، وبعد أن نجحت نفس السياسة فى إيجاد طبقة « بورجوازية » من الأجانب المتصرين . أو المصريين الوصوليين تعيش هى الأخرى فى المدن كالتفيليات . تحمىها التشريعات المختلفة التى لا تحسب حساباً لمرض ذلك الفلاح . أو شيخوخته ، أو أشغافه . فيشقى هولكى تسعد تلك الفئات الكسلى .

وقيل مثل هذا الكلام الأثيم عن المصرى بعد ذلك فى منتصف القرن التاسع عشر . وعلى وجه التحديد فى عام ١٨٥٣ فى كتاب نشره رحالة ألماني زار مصر إذ ذاك فزعم « أن المصرى همجى ونصف متوحش . وعنيد ويجب لترويضه وتمدينه استخدام سوط من حديد » (١) .

ورغم هذا الاقتراء الذى نسب إلى المصرى فقد أثبت على مدى التاريخ أنه أول معلم أتى على العالم دروس الحضارة الأولى . وأول واضع لأسس الأخلاق التى لا تزال أرقى شعوب العالم الحالى تعتبرها مثلاً علياً تنشدها فيصعب تحقيقها ، وأنه لم يمكن غازيا لوطنه من أن يفرض ارادته عليه . أو يسلبه حرته وسيادته بل أفنى جميع الغزاة الذين مروا به فى مصريته التى اعتزبها دائماً .

١ - أن مصر - دون سائر دول العالم التى تعتبر متمدنة فى العصر الحالى - قد نشأت فيها مدنية أصيلة قبل أن تنشأ فى غيرها ونمت تلك المدنية وازدهرت وانتشرت منها فى أرجاء العالم الأخرى التى كان الآدميون يتحركون أثناءها فى الغابات إلى جانب الحيوانات وهم على الفطرة . هذا أمر أجمع عليه كافة المؤرخين الذين توفروا على دراسة تاريخ

(١) Bogumil Goltz : Provincial d'Egypte من تلخيص لجريدة Le Progrès Egyptien الصادرة فى ١١ أبريل سنة ١٩٤٣

مصر القديم فلا شك أن المصريين هم شعب له كيانه الخاص . ومقوماته « الأثنولوجية » المميزة له دون سائر الشعوب الأخرى التي مرت مثله في عصور ما قبل التاريخ ، أى العصور السابقة على استخدام الانسان للمعادن . وهى عصر الحجر غير المصقول . وعصر الحجر المصقول وعصر الانتقال من استخدام الحجر إلى استخدام المعدن . والشعوب التي مرت مثله — ومعها — فى تلك العصور هى الشعب الكلدانى الذى كان يقطن وادى دجلة والفرات . والشعب الذى كان يقطن وادى نهر الهندوس فى الهند .

وقد دلت الآثار التى وجدت فى مصر من العصر الحجري على فساد الزعم بأن الحضارة المصرية التى نشأت فى العصر الحجري هى حضارة كلدانية انتقلت إلى مصر بغزو الكلدانيين لها . كما دلت تلك الآثار أن المصريين قد انتقلوا من العصر الحجري — أى عصر قبل التاريخ — إلى العصر المعدنى قبل غيرهم من شعوب العالم أجمع (١) .

ومن الثابت أن أول مدينتين ازدهرتا فى التاريخ بين المصريين والكلدانيين . ولكن مصر تحتل مكان الصدارة بالنسبة لقدم المدنية المصرية وبالنسبة لعدد الآثار التى خلقتها ولجمالها . ففى مصر تبدو شخصية المصرى منذ أقدم عصور التاريخ ويمكن للمؤرخ أن يتتبع تطور جسمه وروحه وآثاره الإجتماعية والسياسية والعقلية والفنية تطوراً متسقاً متسلسلاً بدون انقطاع إلى يومنا وهى ظاهرة لا مثيل لها فى تاريخ أية مدينة أخرى . ولذلك يجب أن تبدأ فى مصر دراسة أصول المدنية التاريخية

وقد ظهر الإنسان فى مصر وفى الأقطار المجاورة لها من شمال أفريقيا

(١) عبد القادر حمزه «على هامش التاريخ المصرى القديم» الجزء الأول ص ٤٢

قبل أن يظهر في غيرها من بقاع العالم . ففي الوقت الذي كان الثاج يغمر أوروبا كانت الصحراء الكبرى الحالية بقاعاً تغمرها المياه وتغطيها الحشائش وتجموب فيها الحيوانات وقد وجدت حول الجزائر وفي جفصه على مقربة من تونس آثار عرف عمرها من عدد الطبقات التي ترا كمت فوقها . وهذه الآثار عبارة عن أدوات وأسلحة لشعب من الصيادين الرحل كما أن صور الحيوانات التي كانوا يصطادونها وجدت محفورة على الجدران في بعض جهات الجزائر والسودان المصرى . وقد وصلوا إلى حافة المنخفض الذي كان النيل يجاهد لكي يحفر لنفسه ممراً فيه ، وفي العصر الثلجى الأول لأوروبا تمكنت مياه أنهر وسط أفريقيا من أن تجرد منفضاً بين أحجار الجرانيت في النوبة وأن تصل إلى البحر الأبيض المتوسط . وفي العصر الثلجى الثانى لأوروبا اجتذب وادى النيل صيادى المناطق المجاورة بمائه ونباتاته وحيواناته^(١)

ومن الثابت أيضاً أن المصريين قد انتقلوا فجأة من العصر الحجرى الأول palceolithic إلى العصر الحجرى المهدب neolithic الذى يحسن أن يسمى العصر النحاسى Chalcolithic لأن النحاس كان قد بدأ استعماله أثناءه فلم يعثر على آثار تدل على أن المصريين قد تدرجوا مع العصر الحجرى بدرجاته المختلفة كما تدرجت شعوب أخرى . وقد اتضح من الحفائر العميقة في قم الدلتا وجود أواني خزفية وطوب مصنوع كما وجدت جمجمة في دمياط على عمق عشرين أو ثلاثين متراً . وبناء على التقديرات المعقولة يكون أولئك البناؤن قد عاشوا هناك منذ ستة عشر ألف عام^(٢) ومن

(١) A. Moret, G. Davy : From Tribe to Empire p. 117, 118

(٢) James Breasted : The Origins of Civilisation (reprinted from the Scientific Monthly) November 1919 p. 307

المحتفل أنهم الشعب الذي عاش بين عصر رجال الصحراء الحجري والعصر النحاسي الذي جاء بعده . وهو العصر الذي يعود تاريخه إلى خمسة آلاف سنة قبل الميلاد^(١)

ومن الثابت أيضاً أنه لا توجد آثار تدل على وجود الإنسان في سوريا أو بين نهري دجلة والفرات تعود إلى ما قبل أربعة آلاف سنة قبل الميلاد وفي ذلك التاريخ كان المصريون قد دخلوا باب تاريخهم الخاص وثبتت أقدامهم فيه ولذلك فمن الحكمة أن نعزو تقدم المصريين الأوائل إلى عبقريتهم الخاصة وإلى الظروف الإستثنائية التي أتاحتها لهم وادي النيل ولا يوجد دليل على أن ذلك التقدم يعود الفضل فيه إلى أجناب عن أولئك المصريين كانوا أكثر منهم تقدماً أو رقياً^(٢)

ولما كانت بعض أجسام المصريين الذين عاشوا في العصر النحاسي قد صانتها القبور من العطب فقد تبين من فحصها أن الجنس المصري يتميز باعتدال القامة ونحافة البنية وطول الوجه وضيق الجمجمة وسواد العينين والشعر الناعم الملمس أي الذي ليس « أكرتاً » وليس هناك أي أثر للجنس الزنجي في الجثث التي وجدت من ذلك العصر النحاسي بل على العكس كل شيء يدل على أن هناك وجه شبه شديد أو قرابة بين الجنس الذي يسكن جنوب أوروبا وبين أولئك المصريين وهو الجنس الذي يسميه العلامة سيرجي Sergi « الجنس الأبيض المتوسط »^(٣)

ولعل أحسن رد على مازعه بعضهم من أن بعض أوجه الشبه التي بين آثار الكلدانيين التي من العصر الحجري وآثار المصريين التي من نفس

J. De Morgan : Recherches sur les origines de l'Égypte p. 100 (١)

A. Moret, G. Davy : From Tribe to Empire o. 122 (٢)

James H. Breasted : The Origins of Civilisation p. 428 (٣)

العصر تدل على أن مصر قد اقتبست من حضارة السكلدانيين هو ما ذكره أحد كبار الثقات في التاريخ المصرى القديم من أن جميع المكتشفات والابتكارات الهامة مصرية صميمية وليس هناك ما ينبيء بأن مصر مدينة لآسيا بتلك الحضارة بل من الممكن تفسير ذلك الشبه بين حضارة مصر وحضارة السكلدانيين بأنه وقت انتقال الحضارة المصرية الى الخارج (١)

فاذا قابلنا بين ما كانت عليه مصر في عصر ما قبل التاريخ وما كانت عليه انجلترا الوجدنا أن الآثار التي تعود الى ذلك العصر والتي لا تزال موجودة بانجلترا تثبت أن مدينتين مختلفتين قد أترتا في أهل انجلترا إحداها مدينة «الايبيريين» التي نظن أنهم قدموا الى انجلترا من اسبانيا وهى مدينة فطرية . وسواء كانت تلك المدينة اسبانية أم لافلاشك أنها صادرة من البحر الأبيض المتوسط . فالسافر القادم من جزيرة مالطة يدهشه عند وصوله الى مدينة «ستونهنج» الانجليزية عظم الشبه بين آثار عصر ما قبل التاريخ في مالطة ومثيلاتها في انجلترا . وهذه المدينة قد انتقلت الى انجلترا بواسطة المهاجرين الذين لم تنقطع صلتهم بالقارة الأوربية بسبب التجار الذين كانوا يحضرون الى انجلترا للحصول على المعادن ويدفعون ثمنها منتجات الشرق (٢)

٢ — وقد انتهى العصر الحجري في مصر — وكان لا يزال مستمراً في غيرها كما قلنا — حوالى عام ٣٢٠٠ قبل ميلاد المسيح وبدأ تاريخ الأسر المصرية التي توالى على حكم مصر ، وليس هنا محل الكلام على الانتصارات الحربية التي قام بها المصريون في مجد تاريخهم ولا على

Gordon Childe : L'Orient Prèhistorique (١)

André Maurois : Histoire d'Angletrre P. 17 (٢)

انتباههم الى الحدود الطبيعية التي يجب أن تمتد الى مصر شمالاً وشرقاً وجنوباً . فحل هذا باب آخر من أبواب هذا الكتاب وإنما أكتفى هنا للتدليل على مبلغ رقي المصري في بدء تاريخه ، وعلى ابتكاره قواعد الاخلاق الفاضلة وأسس المعاملات الكريمة قبل أن تخطر لشعب اخر أن أذكر فقرة منقولة عن كتاب « الموتى » التي كان يتضمنها فلسفة المصريين الأوائل وطريقة محاسبة الموتى ، وهو كتاب ذاع بين عصر الدولة الوسطى والدولة الحديثة التي انتهت في عام ١٠٨٥ قبل الميلاد . إذ جاء على لسان الميت وهو يخاطب قضاة الذين كانت تذهب العقيدة المصرية القديمة الى أنهم سيتولون محاسبته على شكل محكمة .

«إنتى لم أقارف الشر ولم أعتد ، ولم أسرق ، ولم أقتل غدرأ ولم أكذب ولم أسل دموع أحد ، ولم أتدنس ، ولم أتلف أرضاً مزروعة ، ولم أقذف ، ولم أترك الغضب يخرجنى إلى غير الحق ، ولم أزن ولم أرفض أن أسمع كلمة العدل ولم أمىء الظن بالملك ولا أبىء ولم ألوث الماء ولم أحمل سيدياً على أن يسىء إلى عبده ، ولم أحلف كاذباً ، ولم أغش في الميزان ، ولم أمنع اللبن عن أفواه الرضع . ولم أرد ماء حين الحاجة إليه ، ولم أسد قناة رى على غيرى ، ولم أطفىء ناراً يجب أن تشعل .»^(١)

وفي نفس « كتاب الموتى » فقرة أخرى يتوجه بها الميت إلى قضاة يقول فيها .

«لقد عشت بالعدل ، وتغذيت بالعدل ونشرت الافراح في كل صوب

(١) Moret: Le Nil et la Civilisation ترجمة عبد القادر حمزه باشا في كتاب

« على هامش التاريخ المصري القديم » الجزء الأول ص ١٠٣

وأطعمت الجياع ، وسقيت العطاش ، وكسوت العراة ، ومددت للفرقي
يد النجاة»^(١)

وهذا الفهم النبيل لقواعد الاخلاق . وهذا التحديد الرائع لأسس
المعاملات . يقطعان في الدلالة على ما وصل إليه المصريون الأوائل من رقي ،
وعلى مامتازوا به من سمو على باقي شعوب الأرض في ابتكار المقدمات
الصحيحة للحضارة الانسانية الأولى ، ويكفي هنا للرد على الذين يفترون
على المصريين ، ويشوهون تاريخهم وينكرون فضلهم ، أن أذكر كلمة
العلامة المؤرخ « لافيس » عضو الأكاديمية الفرنسية إذ قرر بصريح العبارة
« أن مصر كانت المعاملة الأولى للانسانية »^(٢)

٣ — وأول غزو أجنبي امتحنت فيه مناعة المصريين ومدى اعتزازهم
باستقلالهم هو غزو « الهكسوس » و « هك » في اللغة المصرية القديمة
تعني « حاكم » و « سوس » تعني البلاد الأجنبية فالهكسوس هم الحكام
الذين من البلاد الأجنبية . وهم ينتمون إلى جنس سامي زحفت عليهم
الشعوب الآرية من شرق بحر قزوين فاندفع نحو مصر . وقد فنوا في
القومية المصرية فقتلوا ملوك مصر الفراعنة في أسماهم وعاداتهم ولغاتهم
وديانهم وأطلقوا على أنفسهم اسم « أبناء رع » . ورغم ذلك كله ظل
المصريون يكرهونهم ويذكرون دائماً أنهم غزاة لوطنهم فكانوا يصفونهم
بالقذرين واتهز أمراء طيبة وعلى رأسهم أحسن الأول أول فرصة سانحة
فطردوهم من مضر وثأروا منهم فدمروا ومحو آثارهم لكي لا تبقى شهادة
بهذا المساس الطارىء بسيادة مصر

(١) هند اسكندر عمون — « تاريخ مصر » ص ٦٤

(٢) Lavissee : Histoire de France P. 19

وسرعان ما استردت مصر عظمتها عقب ذلك مباشرة فنشأت الدولة الحديثة (١٥٨٠ - ١٠٨٥ قبل الميلاد) وفيها قام تحوتمس الثالث بتأسيس أول امبراطورية عرفها التاريخ فوصل إلى جبل طوروس شمالا ونهر الفرات شرقا والشلال الخامس جنوبا . كما أدخل ليبيا في الحدود المصرية الغربية وفي خلال حكم الأسر الثامنة عشر والتاسعة عشر والعشرين لعبت « طيبة » دور عاصمة العالم ^(١)

٤ — وثاني غزو امتحننت فيه مناعة المصريين هو غزو الليبيين لمصر . فقد بقوا في مصر قرنين ولكنهم لم يؤثروا أدنى تأثير في قومية المصريين واعتزازهم بمصريتهم . بل حدث أنهم تطبعوا بطباع المصريين وحافظوا على العادات والألقاب الفرعونية . وعبدوا آلهة المصريين وقدموا لها القرابين

٥ — وغزا الأشوريون مصر . ولكن بسمتيك الأول وهو ابن أحد أمراء الأشوريين كان قد فنى في القومية المصرية إلى حد أنه انتفض على الأشوريين وأحيى الآداب المصرية القديمة وبنى المعابد على طراز معابد الدولة القديمة . وذلك أثناء حكم الأسرة السادسة والعشرين .

٦ — وظهرت مناعة المصريين ضد كل حكم أجنبي عند غزو الفرس بقيادة قمبيز لمصر فقد قاومه بسمتيك الثالث مقاومة شديدة ورغم أن قمبيز تغلب عليه فقد ولاء على مصر من قبله ولكن بسمتيك تأمر على قمبيز فأعدمه . وقد فنى الفرس - كما فنى الهكسوس والليبيون والأشيريون - في القومية المصرية فتلقبوا بألقاب المصريين وعبدوا الآلهة المصرية ولكن رغم ذلك كله لم يكسبوا قلوب المصريين فقاموا بعدة ثورات محاولين

إخراج الفرس من مصر وتطهير أرض الوطن من الغزاة إلى أن وقفوا في طرد الفرس أثناء حكم العاهل الفارسي دارا الثاني

فاذا قابلنا بين ما فعلته مصر أثناء ذلك العصر - بين القرن السادس والقرن الرابع قبل الميلاد - وبين ما فعلته إنجلترا لوجدنا الفرق شاسعاً . فقد ظلت إنجلترا خلال ذينك القرنين تتلقى موجات متتابة من قبائل رعاة الأغنام الذين كانوا يهرون الحروب والغزوات فحلوا في إنجلترا محل « الإيبيريين » وتلك القبائل كانت تنتمي إلى شعب « سيلتي » كان يحتل مساحات واسعة من وادي الدانوب وشمال الألب . وقد فرق المؤرخون بين موجتين رئيسيتين من موجات ذلك الغزو البطيء لانجلترا . أولاهما غزوة ال « جواديل » Goidels أو « الجيل » Gaels الذين أعطوا لغتهم « الجيلية » لأهل أرنلنده وأهالي المناطق العليا في « اسكتلنده » والثانية غزوه « البريتون » Bretons الذين أصبحت لغتهم فيما بعد لغة الجالين والبريتونيين في فرنسا . أما في إنجلترا فقد محا الغزو الألماني لها فيما بعد اللغة السيلتية ولم تبق إلا بضع كلمات تستخدم في الحياة المنزلية احتفظت بها النساء السيلتيات اللاتي تزوجن من الغزاة الألمان ومنها اسم « لندن » الذي يقابله في اللاتينية Londinium و يبدو أنه اسم « سيلتي » يشبه اسم القرية الفرنسية « لوندونيير » وقد ثبت ان أول قطعة نقود سككت في إنجلترا نقش عليها رأس « ابولون » مما يرمز الى أن مصدر المدينة التي ظهرت في إنجلترا خلال ذينك القرنين من البحر الأبيض المتوسط .

والباحث في المدينة « السيلتية » يتبين أوجه الشبه العظيمة بينها وبين مدينة « البراهما » في الهند . فرجال الدين والكهنة يكونون أشرف طبقة في

الهيئة الاجتماعية . وكثير من المعتقدات الدينية السيلتية تذكر الباحث بالشرق . فالاضراب عن تناول الطعام مددا طويلة الذي لايزال شائعا في أرنلده هو نفس ما يزاوله الهندوس ويسمونه « دارنا » dharna ويقضى بأن يصوم البراهمي وهو واقف أمام باب خصمه حتى يحصل على الترضية التي يطلبها .

ولاتزال آثار العهد السيلتي بادية في تكوين إنجلترا العصرية الى اليوم ففي القرن العشرين نجد أن مجالس الوزراء والجيش يرأسها ويقودها « سيلتيون » من اسكتلنده أو ارنلده (١)

٧ - وعادت القومية المصرية تؤثر في غاز من أكبر غزاة التاريخ هو اسكندر الأكبر المقدوني . فقد زار واحة سيوه عقب دخوله الى مصر وأبى كبير الكهنة إلا أن يحييه باسم « ابن آمون » فقبل اسكندر هذا الاسم واستبشر به الى حد أنه أوصى أن يدفن بعد موته في واحة سيوه الى جانب أبيه المعبود آمون . وبلغ من تأثير اسكندر بعظمة مصر أن فكر في نقل عاصمة ملكه من مدينة بيللا بمقدونيا الى الاسكندرية ولم يعقه عن تنفيذ تلك الفكرة إلا اضطراره الى مغادرة مصر لمحاربة الفرس وعدم اتمام بناء الاسكندرية (٢)

ولما تولى البطالمة حكم مصر بعد اسكندر بدأوا بالابتعاد عن المصريين وعلّموا أبناءهم تعليما يونانياً ولكن سرعان ما أثرت البيئة المصرية فيهم . ففنّوا ، كن سبقهم من الغزاة ، في القومية المصرية وكثر التزاوج بينهم وبين المصريين وأخذ البطالمة يبالغون في التقرب الى المصريين ومع ذلك فإن

(١) Mauroise: Histoire d'Angleterre P.19-24

(٢) عزيز خانكي: « اسكندر الأكبر » ص ٣٤ و ٣٥ و ابراهيم سيف الدين

المصريين لم ينفكوا يحدون على المعتصبين اليونانيين فثاروا عليهم وقد ترتب على موقف المصريين العنيد من البطالمة خلال القرن الثاني قبل الميلاد واثناء حكم بطليموس الرابع و بطليموس الخامس تداعى الامبراطورية التي أسسها اسكندر الاكبر^(١)

٨ - في كل هذه المراحل التاريخية السابقة التي استغرقت أكثر من ثلاثين قرناً لم يتمكن مستعمر أوغاز من أن يقهر الروح المصرية أو يحرس بصميم القومية المصرية . الى أن غزا الرومان مصر في عهد اكتافيوس بعد أن انتصر على انطونيوس في معركة اكتيوم البحرية وبعد أن تغلب على كليوباتره آخر ملوك البطالمة برأى مصر نفسها . فمن ذلك التاريخ - عام ٣٠ قبل الميلاد - فقدت مصر سيادتها وأصبحت جزءاً من الامبراطورية الرومانية ومركزاً من أغنى المراكز الاقتصادية وأنشطها . ومن أخصب المراكز الثقافية وأكثرها حيوية في تلك الامبراطورية^(٢)

ومع ذلك فاذا كان الرومان قد غزوا مصر عام ٣٠ قبل الميلاد فأفقدوها سيادتها التي احتفظت بها على مدى عصور التاريخ السابقة فقد غزوا انجلترا في نفس ذلك الوقت . وعلى وجه الدقة في عام ٥٥ قبل الميلاد في أيام حكم قيصر فلما لم يوفق في ذلك العام التوفيق الذي كان يرجوه عاد في العام التالي أى في عام ٥٤ قبل الميلاد واستعدى بعض القبائل السيلتية على البعض الآخر وبذلك توصل إلى غزو انجلترا وفرض عليها الضريبة المستحقة لروما وتأثرت بلاد «الجزول» بانجلترا بالروح الرومانية . وتدوونت العملة الرومانية

(١) Pierre Jouquet : L'Egypte Alexandrine الجزء الثالث من سلسلة

Histoire de la nation Egyptienne لجيريل هانوتو

(٢) Victor Chapot : L'Egypte Romaine من السلسلة المشار إليها في

في انجلترا . وكثير عدد القراء الذين كانوا يقرأون الشعر الروماني . ولا يزال أثر العصر الروماني ظاهراً الى اليوم في انجلترا فمعظم المدن الانجليزية التي تنتهي أسماؤها بـ «شستر» Chester أو «سستر» Cester كانت أثناء الغزو الروماني ثكنات رومانية Castra . ولم ينقض طويل وقت على الغزو الروماني حتى انتشرت المنازل المبنية على الطراز الروماني في جنوب انجلترا وانتشر معها النقش الروماني على الجدران ، والأرض المنقوشة برموز تشير الى التاريخ الروماني وبلغ الأمر الى حد أن الرومان بنوا في «باث» مدينة رومانية بحثة من مدن المياه . وقد تعود «السيلتيون» على تلك الحياة الرومانية . أو على الأقل تعود عليها جانب منهم . وقد يعود السبب في ذلك الى أن الرومانيين لم يكرهوا الشعب الإنجليزي على تقليدهم بل أن الفرد الانجليزي كان يقبل مختاراً على التأثير بالمدنية الرومانية لما كانت تمتاز علم مدنيته الخاصة (١) .

٩ - وقد ظلت مصر ولاية رومانية ستمائة وسبعين عاماً . انتهت بغزو العرب لمصر في عام ٦٤٠ ميلادية . فعاد المصريون يشبتون مناعتهم التاريخية ويفنون الغزاة الجدد في قوميتهم . إذ ظلت اللغة القبطية رغم الغزو العربي لغة الدواوين الى عهد خلافة الوليد بن عبد الملك الملقب بأبي العباس أي أنها ظلت كذلك خمسة وأربعين عاماً وتكررت ثورات المصريين في خلال حكم العرب فكان الخلفاء يحترمون ارادتهم وينفذونها

١ - فقد شكوا أسامة بن يزيد . عامل الخراج في عهد خلافة عمر بن عبد العزيز (٧١٧ - ٧٢٠ م) فعزله ولم يكلف بذلك بل أمر بإرساله الى

دمشق مكبلا بالحديد . مسمرة يدها وقدماه بأطواق من خشب ولكن أسامه مات في الطريق .

ب — وثار المصريون في عهد خلافة يزيد الثاني بن عبد الملك (٧٢٠ — ٧٢٤) الذي وليّ علي مصر حنظلة بن صفوان . وكان سبب الثورة أنه حطم الآثار المصرية . وامتدت الثورة بين بليس ودماط .

ج — وعادوا الى الثورة في عهد هشام بن عبد الملك (٧٢٤ — ٧٤٣) بسبب نفس الوالى حنظلة بن صفوان واستجاب الخليفة لمطالبهم فعزله وولى مكانه حفص بن الوليد .

د — وعادوا الى الثورة في عهد مروان الثاني بن محمد (٧٤٤ — ٧٥٠) لأنه ولى حسان بن عتاهية على مصر وطالبوا بعودة حفص وركبوا الى المسجد ودعوا الى خلع مروان وحصروا حسانا الوالى فى داره ثم طردوه من مصر وولّوا حفصا للمرة الثالثة وعاد فى تلك الأثناء حنظلة بن صفوان من افريقيا ونزل الجزيرة فكتب مروان الى مصر يأمر بتوليته وعندئذ منعه المصريون من الإقامة فى القسطنطينية .

(هـ) وثاروا بعد إنشاء الدولة العباسية فى عهد خلافة أبى جعفر المنصور (٧٥٤ — ١٧٥) فجمعوا جموعهم فى سخا وتغلبوا مرتين على الجيش الذى وجه لاختصاصهم والى مصر إذ ذاك يزيد بن حاتم وظلت ثورتهم تجبو وتنفذ حتى بعد أن عين موسى بن على والياً على مصر

(و) وفى عهد خلافة المهدي بن المنصور (٧٧٥ — ٧٨٥) اشتهز المصريون فرصة ثورة دحية بن المعصب الأموى على العباسيين فانضموا الى دحية

ولما توجه موسى بن مصعب والى مصر إذ ذاك إلى الصعيد لاختصاصهم تغلبوا عليه وقتلوه .

(ز) ظلت مصر مسيحية . وظل المصريون يرفضون أن يجعلوا دين الغزاة العرب ديناً لهم إلى عهد عبد الله المأمون الرشيد (٨١٣ - ٨٣٣) وقد زار الخليفة مصر فكان أول خليفة عباسي يزورها . وأصبحت مصر بعدئذ إسلامية .

فاذا قارنا بين موقف مصر في ذلك العهد من غزاتها وبين موقف إنجلترا لوجدنا أن الغزاة « الانجلوسا كسون » والدانمركيين قد تتالوا على إنجلترا . فلم يقابلوا بمقاومة كالمقاومة العنيدة الجبارة التي أبدتها المصريون إلى حد أنه عندما وصلت السفن التي تقل الدانمركيين إلى نقطة من شاطئ إنجلترا عام ٧٨٧ ميلادية ذهب عمدة أقرب قرية إلى تلك النقطة لاستقبالها وتقدم الدانمركيين ممتطياً صهوة جواده كأنه يؤدي واجباً وهو يجمل أنهم غزاة لبلاده . فقتلوه !^(١)

١٠ - وعادت مناعة المصريين تظهر في عهود الدولة الطولونية (٨٧٠ - ٩٠٥) والدولة الاخشيدية (٩٣٥ - ٩٦٩) والدولة الفاطمية (٩٦٩ - ١١٧١) والدولة الايوبية (١١٧١ - ١٢٥٠) ودولة المماليك البحرية (١٢٥٠ - ١٣٨٢) ودولة المماليك الجراكسة (١٣٨٢ - ١٥١٧) فامتدت حدود مصر المستقلة ذات السيادة الكاملة إلى مداها الطبيعي أي جبال طوروس شمالاً ونهر الفرات شرقاً وقد حدث أثناء عهد دولة المماليك البحرية أن ثارت قبائل الاسماعيليين على الحكم المصري وعمد الصليبيون إلى محالفتها فرأى الظاهر بيبرس أن يستدعيهم للاقامة بمصر وكأنه كان واثقاً

من المناعة التاريخية العتيقة التي اختص بها الشعب المصري وهي مناعة الاحتفاظ دائماً بالقومية المصرية والقدرة على إفناء كل دخيل فيها . إذ أن تلك القبائل لم تلبث أن امتزجت بالمصريين ووضاع خبرها^(١)

وقد رأى الأدب العربي عصرأ من أزهى عصوره في دولتي المماليك البحرية والجزراكسة بل أن التاريخ يشهد بأن مصر قد حمت ذلك الأدب العربي من الفناء بايواء المضطهدين من المشتغلين به الذين لجأوا إليها من العراق وسوريا وغيرها . ويكفي الدلالة على أن قومية المصريين قد أُنمت فيها عناصر المماليك الدخيلة أن امراء أولئك المماليك - وهم من أصل تركي - قد شجعوا الأدب العربي والعلماء المصريين . ففي تينك الدولتين عاش بمصر وأنتج عشرات من أئمة الأدب العربي . كالبوصيري صاحب « البرده » والقنقشندي صاحب « صبح الأعشى » وشمس الدين السخاوي صاحب « الضوء اللامع » وابن خلكان صاحب « وفيات الأعيان » والمقريزي صاحب « الخطط » وأبي الفداء صاحب « تقويم البلدان » والدميري صاحب « حياة الحيوان »

وقد لجأ إلى مصر في عهدي تينك الدولتين الامام ابن تيميه وابن قيم الجوزية . وابن خلدون^(٢)

فاذا قارنا بين ما جرى بمصر في تلك الفترة وما جرى بانجلترا لوجدنا أن الداعركين الذين غزوا شرق انجيليا في الجزائر البريطانية وجدوا حضارة

(١) هند اسكندر عمون - « تاريخ مصر » ص ١٥٤

(٢) عبد الرحمن الرافي - « تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر » الجزء الأول ص ٤٥

، بنى تلك الجزائر من القارة الأوروبية لم تنبت نباتاً طيباً فأثروا فيها
تأثيراً كبيراً . بينما الدانمركيون الذين ظلوا في نورمانديا بفرنسا عندما وجدوا
روما على مرأى من فرنسا تأثروا بالروح اللاتينية . فلما تولى جويوم ابن
السفاح دوقية نورماندى فكبر في غزو انجلترا . وكان صاحب الحق في ذلك
التاج الملك ادوارد المعروف بادوارد الساذج والوريث الوحيد له هو هارولد
فلما مات ادوارد انتخب هارولد ملكاً لانجلترا وطالب جويوم بالتاج
الانجليزى فأيده البابا وأخذ النورمانديون يستعدون لغزو انجلترا ولم
يستدع الأمر أكثر من معركة واحدة في الطريق بين لندن وهاستنجز
تفوق فيها الانجليز بادية الأمر فحارب جويوم وهو يتقهقر ثم تقاب
عليهم وقتل هارولد وحاصر جويوم لندن وبدلاً من أن يعلن نفسه ملكاً
انتظر إلى أن عرض عليه التاج فتظاهر بالتردد وفي عيد الميلاد من عام
١٠٦٦ توج الدوق النورماندى الغازى ملكاً على انجلترا في كنيسة
وستمنستر !

وقد طبع النورمانديون الفرنسيون بطابعهم انخاص معظم المؤسسات
التي تمتاز بها انجلترا إلى اليوم ^(١)

١١ — وعادت مناعة المصريين وقوة مقاومتهم للغزاه تظهر بعد فتح
العثمانيين لمصر فقد ثاروا في عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠)
عندما أمر السلطان بتعيين على باشا والياً على مصر بدلاً من مصطفى باشا
الذى كان المصريون يحبونه وأرغموا على باشا على العودة إلى الإستانة . ولم
يتمكنوا من دخول القاهرة . فلم يجد السلطان بداً من النزول على إرادة
المصريين وإبقاء مصطفى باشا

فإذا قارنا بين هذه الرجولة التي كانت تبدو في موقف المصريين خلال ذلك العصر وبين ما كان يحدث في أرقى الدول الأوروبية الحالية كإنجلترا لوجدنا أنه منذ الغزو النورماندى لإنجلترا عام ١٠٦٦ لم يتوج على إنجلترا ملك واحد يجرى في عروقه دم إنجليزي صميم حتى وليت الملكة اليزابيث عام ١٥٨٨ أى أن إنجلترا ظلت محكومة بملوك أجانب خلال خمسمائة عام وليس هذا الكتاب مجالا للأسهاب في شرح الاضطراب السياسى والتعصب الدينى والقوضى التي كانت سائدة في أنظمة الحكم بإنجلترا وقتئذ ولكن يكفى أن أسوق دليلا واحداً على الفرق بين نظام الحكم في مصر ونظامه في إنجلترا في عصر واحد هو عصر تولى الملكة اليزابيث حكم إنجلترا وتولى الملكة ماري ستيورات حكم اسكتلنده . فقد تلقت ماري ستيورات تعليمها بفرنسا لأن أمها هي إحدى أميرات بيت « جيز » الفرنسى فلما تولت حكم اسكتلنده - وكانت كاثوليكية - بدأت الثورات تنشب من المنتهين إلى المذهب البروتستانتى وكانت هذه الثورات تؤيدها اليزابيث ملكة إنجلترا وقد بلغ تعصب رجال المذهب البروتستانتى ضد الملكة الكاثوليكية إلى حد أن أحد زعمائهم وهو - جون نوكس - نشر كتاباً أسماه « أول دقة على الطلبة ضد حكومة النساء الشيطانية » ^(١) فكانت الخلافات السياسية بين الملكتين توحى بها وتؤثر عليها عواطف الغيرة بينهما ، وبلغ من الفساد في بلاط الملكة ماري ستيورات أنها رغم زواجها من الأمير Darnley أحد سلالة آل نيودور مثلها تدهلت حباً في موسيقار إيطالى يدعى David Rizzio فتآمر

John Knox : The First Blast of the Trumpet against the (١)

نبلاء البلاط مع دارنلي على قتل ذلك الايطالى وهو يتناول العشاء مع الملكة وبعد ذلك بثلاثة أشهر رزقت بطفل أصبح فيما بعد جاك السادس ملك اسكتلنده و جاك الأول ملك انجلترا وقيل إنه ابن ريزيوشم تأمرت ماري على قتل زوجها فثار الشعب وقبض عليها وزج بها إلى السجن في ادنبره والجنود يصيحون « احرقوا العاهرة ! » وبعد أن حوكت قضى عليها بالاعدام فقال ابنها جاك - الذى لم ينس أن تنفيذ حكم الاعدام فيها سيجلسه على عرش انجلترا - « إن ديني كان يدفعني دائماً إلى كره سلوكها » وقد نفذ حكم الاعدام فعلاً في ٨ فبراير عام ١٥٨٧

وما حدث في بلاط ملكة اسكتلنده كان يحدث مثيله في بلاط اليزابيث ملكة انجلترا فانها اصطفت كونت ايسيكس لرشاقتة وتدهلت في حبه . فكان يقسو عليها ويعاملها معاملة جافة . وطلب منها أن تعينه قائداً للحملة التي أرسلت لاختضاع الثورة الأيرلندية عام ١٥٩٤ فخان واجبه كقائد وفكر في أن يعود بجنوده لخلع الملكة (١)

١٢ - وتجلت مناعة المصريين وقدرتهم على إفناء كل شعب دخيل في قوميتهم في أواخر عهد العثمانيين بمصر . فان أهم الفرق العسكرية التي كان الاحتلال العثماني يعتمد عليها كانت فرقة الانكشارية . فكان قائد هذه الفرقة هو قائد عام الحامية العسكرية العثمانية بمصر ومع ذلك فان تلك الفرقة - كغيرها من الفرق العثمانية - قد انتظم فيها كثيرون من المصريين فصارت لها صبغة مصرية . وسد المصريون مع مرور الزمن الفراغ الذي حدث في الفرق العثمانية . أما الباقون في تلك الفرق من

العثمانيين فقد اندجحت سلالتهم في أهل مصر^(١)
ولعل الدليل القاطع على فناء تلك العناصر التي تنتمي إلى أصل تركي
في القومية المصرية هو موقف علي بك الكبير - وهو مملوك - من الدولة
العثمانية عام ١٧٦٨ عندما نشبت الحرب بين تركيا وروسيا فقد أعلن استقلال
مصر وعزل الوالي التركي وامتنع عن دفع الخراج ولم يكن ما فعله علي بك
الكبير بدعة فقد كان العثمانيون منذ دخولهم يشعرون بتفوق المصريين
عليهم في كثير من مظاهر الحضارة حتى أن السلطان سليم - بعد أن تم له
غزو مصر - جمع رؤساء الصناعات المصريين ونقاهم إلى الاستانة ليعلموا
الأترك الحرف التي نبغوا فيها بمصر^(٢)

والمؤرخون الذين توفروا على دراسة تاريخ ذلك العصر مجمعون على
أن مصر، وإن اعتبرت من وجهة النظر القانونية ولاية تابعة للإمبراطورية
التركية، إلا أنها في الواقع كانت مستقلة يحكمها نفر من مغتصبى السلطة^(٣)
١٣ - وقد بدأت مقاومة المصريين للغزاة . وبدأ أصرارهم على
الاحتفاظ بسيادتهم يتخذان شكلاً عصبياً منذ غزو فرنسا بقيادة نابوليون
بونابارت لمصر عام ١٧٩٨ . وموقف المصريين من الحملة الفرنسية هو بدء
الصراع الوطنى الحالى لاستكمال استقلال مصر وهو وثيق الصلة بالتطورات
التي مرت بها الحركة الوطنية المصرية بعد ذلك .

وقد فطن بونابارت الى ماسوف تصادفه قواته من مقاومة المصريين
فأصدر بمجرد وصوله الى الاسكندرية منشوراً كان قد طبعه على ظهر الباخرة

(١) عبد الرحمن الرافعى : « تاريخ الحركة القومية » الجزء الأول - ص ١٤

(٢) المرجع السابق ص ٤٣

(٣) Roux . Charles Roux : Bonaparte Governor of Egypt P. 18

هو أكبر ثقة في تاريخ نابوليون

Orient احدى بواخر الغزو باللغة العربية ذكر فيه :
«أيها المشايخ والقضاة والأئمة وأعيان البلد قولوا لأمتكم إن الفرنسيين
هم أيضاً مسلمون مخلصون وأثبت ذلك أنهم قد تزلوا في روما وخرّبوا فيها
كرسى البابا الذي كان دائماً يحثّ النصارى على محاربة الإسلام ثم قصدوا
جزيرة مالطة وطرّدوا منها الفرسان الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب
منهم مقاتلة المسلمين» (١)

ورغم هذا التملق الظاهر للمصريين فإن الفرنسيين قد قوبلوا منذ وطئت
أقدامهم أرض مصر بمقاومة شديدة .

فقد بدأ نزول القوات الفرنسية إلى البر بجهة العجمي غرب الإسكندرية
في مساء ٢ يوليو عام ١٧٩٨ ولكن المصريين استعدوا لمقاومة الغزاة قبل
نزولهم فأخذوا يحصنون القلاع ويزيدون عدد الجنود المتطوعين للقتال
ويجمعون جيشاً من العرب

وقد ظل السيد محمد كريم حاكم الإسكندرية يدافع عنها بعد دخول
الفرنسيين إلى المدينة معتصماً بطابية قايتباي ومعه فريق من الجند إلى أن
خارت قواه ورأى المقاومة عبثاً فسلم القلعة (١)

وقد اعترف الفرنسيون بمقاومة المصريين فقرروا أن أهالي الإسكندرية
دافعوا عن أسوار المدينة دفاع المستميت وقد أصيب الجنرال كليبر بعيار
ناري في جبهته فجرح جرحاً بليغاً وأصيب الجنرال «مينو» بضربة حجر
أسقطته من أعلى السور فذاته رضوض شديدة وأصيب الأجدان جنرال

(١) Charles Roux : Bonaparte Gouverner o Egypt P. 26. والنس

العربي منشور بالجبرتي وقد استبعدنا منه بعض الالفاظ التي ليست عربية

(٢) عبد الرحمن الرافعي — المرجع السابق ص ١٧٥ و ١٧٩

ايسكال Escale مجرح بليغ في ذراعه من عيار نارى وقتل الجنرال ماس
Mas وخمسة ضباط آخرون (١)

وقد دارت أول معركة بين الفرنسيين والمصريين بالقرب من شبراخيت
يوم ١٣ يوليو وكان المصريون بقيادة مراد بك فلما انهزم تراجع الى القاهرة
ولكن مقاومة المصريين للغزاة ظلت على حدتها خلف الخطوط
الفرنسية . فقد حدث ان كانت إحدى الكتائب الفرنسية بقيادة الجنرال
«ديموى» Dumuy مارة بمركز كفر الدوار فاجها المصريون وتغلبوا عليها .
وتبين ديموى روح العداة التي كان يبدئها المصريون فكتب في تقريره
« إلى آسف كثيراً لأنى لم أجد في جولتى هذه مصرياً واحداً يحمل الشارة
الفرنسية » (٢)

وعاد المصريون بقيادة مراد بك فالتقوا بالفرنسيين في مركز امبابه
يوم ٢١ يوليو فلما انهزم جيش مراد بك فر الى الجيزة وترك أمر المقاومة
بين يدى العناصر المصرية الصميمة التي كانت بالقاهرة . أى فى الشاطيء
الشرقى لل النيل

وفى نفس اليوم الذى دارت فيه معركة امبابه أصدر الجنرال كبير
الذى تركه بوناپارت لقيادة الفرنسيين بالاسكندرية أمراً بالقبض على
محمد كريم حاكمها الوطنى ثم أعدم يوم ٦ سبتمبر عام ١٧٩٨ بعد أن
رفض دفع الغرامة التي فرضها عليه الغزاة فمات شهيد بطواته . ولا شك
أنه كان منظم مقاومة الغزاة وقد حملوا رأسه بعد قطعها وطاقوا

(١) المرجع السابق ص ١٧٩ من رسالة الجنرال Berthier الى وزارة الحربية
الفرنسية فى ٦ يوليو سنة ١٧٩٨
(٢) المرجع السابق ص ١٨٩

بها شوارع القاهرة ومعها هذه الكلمات «كريم حاكم الاسكندرية الذي
أدين لأنه حثت يمين الولاء للجمهورية الفرنسية . وهكذا سيماقب جميع
الحوثة» (١)

أما في القاهرة فقد استعد أهلها لصراع الغزاه ابتداء من يوم ١٧ يوليو
وبذلوا وسعهم وفعلوا ما في مقدورهم وطاقتهم وسمحت نفوسهم بانفاق
أموالهم فلم يشح أحد في ذلك الوقت بشيء يملكه واتجهوا جميعاً إلى
بولاق فلم يبق في القاهرة رجل لم ينتقل إلى بولاق (٢) وكان منظم المقاومة
هو السيد عمر مكرم

وقد اعترف الفرنسيون بأن نصف عدد الجيش المصري الذي قاتلهم
في امبابه كان من الفلاحين وأنهم دافعوا دفاع الأبطال ورفضوا التسليم
فماتوا قتلاً وغرقاً (٣) مما يقطع في الدلالة على مدى مساهمة العنصر المصري
الصميم في المقاومة على شاطئ النيل

ولم يبدأ للفرنسيين بعد ذلك بال بل استمرت مقاومة المصريين لهم
مستعرة متأججة ففي ١٢١ أكتوبر عام ١٧٩٨ خرج فرسان قبيلة العائذ
بالشرقية وهاجموا الكتيبة التي كان يقودها الجنرال رينيه وظلت مقاومة
مديرية الشرقية مستمرة الى آخر ذلك العام (٤) فاضطر نابليون الى القبض
على عبد الرحمن أباطه أخ سليمان أباطه زعيم عرب العبايدة .
ورغم تلك المقاومة العنيدة فإن نابليون ظل يتملق المصريين فدعا

Roux : Bonaparte Gouverner of Egypt. P. 28 et 50 (١)

(٢) الجبرتي — الجزء الثالث

Berthier : Relation des Campagnes du Général Bonaparte en (٣)
Egypte et en Syrie

(٤) Roux — المرجع السابق . ص ٤٨

الى إنشاء الديوان العام . ورأى تأليفه من ثلاثة من العلماء وثلاثة من التجار وثلاثة من الأهالى عن كل مديرية ومحافضة وقد اجتمع ذلك الديوان يوم ٥ اكتوبر عام ١٧٩٨ وافتتحه نابليون بخطاب قال فيه

« ان مصر بلاد لا نظير لها وهى أخصب البلاد . وإن العلوم والصنائع والقراءة والكتابة التى يعرفها الناس فى الدنيا أخذت عن أجداد مصر الأول »^(١) . وقد أختير الشيخ الشرقاوى بالانتخاب السرى رئيساً للديوان ولكنه ظل مواليا لحركة المقاومة التى نظمها المصريون ضد الغزاة . إلى حد أن نابليون استدعاه يوم أول سبتمبر عام ١٧٩٨ ووضع بيده وساماً فرنسياً على كتفه فام يكن من الشيخ الشرقاوى إلا أن ألقى به إلى الأرض واستقال من رئاسة الديوان العام رافضاً الوسام الفرنسى وأياً التعاون مع الغاصب^(٢) مما اضطر نابليون إلى إلغاء الأمر الصادر بوجوب وضع ذلك الوسام

ونارت القاهرة فى يوم ٢١ اكتوبر عام ١٧٩٨ — وهو نفس اليوم الذى هاجم فيه أهل مديرية الشرقية قوات الجنرال رينييه مما يدل على تنظيم حركة المقاومة — وكانت الدعوة الى الثورة تخطط علناً بأذان المؤذنين فى المساجد فيدعون إلى الله والى الثورة على المآذن صباح مساء»^(٣)

(١) عبد الرحمن الرافعى — المرجع السابق . ص ١٠٦ و ١٠٧

(٢) وافق Roux فى كتابه Bonaparte : Gouverner of Egypt على هذه

الرواية وان ذكر أن الجبرتى أضنى طابعا مسرحيا عليها وأضاف Roux إليها أن

الشيخ السادات قبل الوسام من نابليون وألقاه بعد خروجه — ص ٦٦

(٣) De la Jonquière : L'Expédition d'Egypte

وكان الجامع الأزهر هو مركز الثورة فهاجم المصريون الفرنسيين ووضعوا المتاريس في الطرق وعينوا حراساً على بابي المدينة الرئيسيين وهما باب الفتوح وباب النصر وحاولوا قطع المواصلات بين النقط المحصنة التي يحتلها الفرنسيون . وقد قتل في اليوم الأول الجنرال Dupuy قائد حامية القاهرة وقتل في اليوم الثاني - أي يوم ٢٢ أكتوبر - الكولونيل Sulkowski ياور نابوليون الخاص^(١)

ولما استعمل الفرنسيون منتهى العنف قعت ثورة القاهرة وقبض على المشايخ اسماعيل البراوى ويوسف المصيلحي وعبد الوهاب الشبراوى وسليمان الجوسقى وحكم باعدامهم ونفذ حكم الاعدام يوم ٤ نوفمبر عام ١٧٩٨ وظلت مقاومة المصريين مستمرة رغم قمع ثورة القاهرة . فقد كتب نابوليون في ١٣ ديسمبر عام ١٧٩٨ يقول إنه اعتقل الشيخ سليمان الشواربى لأنه اتهمه بأنه كان يحرض أهالى مديرية القليوبية على الثورة أثناء تأججها في القاهرة وقد أعدم فعلاً في ميدان الرميثة

وامتدت الثورة الى مديرية المنوفية فهجم الأهالى على الضابط Julien ياور نابوليون وقتلوه وقتلوا معه خمسة عشر جندياً فرنسياً فكان عقاب القرية إحراقها حتى لم يبق فيها بيت قائم^(٢)

وهاجم أهل المنوفية الجنرال Fugières فلم يستطع أن يحمى الك إلا بعد عناء شديد . وقد اشتركت النساء المصريات في ثورة المنوفية وكن يهاجمن الجنود الفرنسيين بكل شجاعة

(١) Roux — المرجع السابق — ص ٢٨٥

(٢) Roux — المرجع السابق — ص ٤٧ وقد ذكر عبد الرحمن بك الرفاعى في كتابه أن قتل هذا الضابط حدث في ناحية « علقام » بمركز كوم حمادة استناداً إلى مراجع أخرى

وقد ظهرت أثناء تلك الثورة شخصية الزعيم « أبو شعير » الذى كان يقطن قرية « عشا » بمركز شبين الكوم والذى قاد الجنرال لانوس Lanusse مقاومة عنيفة لم تتوقف إلا بعد قتله شهيد بطولته يوم ٢٠ أكتوبر عام ١٧٩٨ . وقد اعتبر الجنرال لانوس موته نصراً باهراً واعترف فى رسالة إلى بونابرت بالخسائر التى تكبدها الفرنسيون منه .

وقامت مديرية الغربية بنصبيها فى الثورة المصرية العامة التى نشبت لطرد الفرنسيين من مصر . فى يوم ٩ أكتوبر عام ١٧٩٨ هاجم أهلها الكتيبة التى كان يقودها الكولونيل لوفيفر وظلت المعركة دائرة بين الفريقين أربع ساعات . وقد خشى بونابرت أن يجيب طلب قواده وهو إنزال العقاب بأهل المدينة لما لها من حرمة لدى المسلمين .

واشتركت مديرية الدقهلية فى الثورة فهاجموا الفرنسيين فى يوم ١٠ أغسطس عام ١٧٩٨ . وكان عدد الجنود الفرنسيين مائة وعشرين فلم يبق منهم حياً إلا جندي واحد

وتزعم حسن طوبار شيخ بلدة المنزلة حركة المقاومة فى دمياط وكان نفوذه يعود إلى سيطرته على صيادى الأسماك فى تلك المنطقة الذين كانوا يملكون نحو خمسمائة مركب . وقد هاجم الحامية الفرنسية بهذا الأسطول ليلة ١٦ سبتمبر عام ١٧٩٨ فرسا فى « غيط النصارى » شرق دمياط وقد بلغ من شدة هذا الهجوم المصرى وتنظيمه أن الجنرال Andreossi كذب إلى بونابرت يقول إن نظام المصريين العسكري يجعله يعيل إلى تصديق ما كان قد ذاع من قبل عن قرب وصول مدد من سوريا إلى حسن طوبار .

وما حدث فى الوجه البحرى - وسفناه على سبيل المثال على مقاومة

المصريين العنيدة للفرنسيين - حدث مثله في كل مديرية . وفي كل مركز . بل في كل قرية من قرى الوجه القبلى من الجيزة إلى أسوان . حتى ذكر المؤرخون الفرنسيون أن المصريين من كل طبقة وكل لون قد دافعوا عن أرض مصر ضد الغازى ولم يكونوا يسلمون فى أى شهر من تلك الأرض إلا أمام القوة المتفوقة (١)

من هذا كله يتضح بجلاء أن سيادة مصر لم تتأثر بالغزو الفرنسى . لأن مقاومة المصريين لم تقف منذ نزل الفرنسيون أرض مصر . كما أن الظاهرة التاريخية التى بدت فى فناء الغزاة لمصر فى القومية المصرية بدت أيضاً فى فناء بوناپارت فى هذه القومية . وفى اعتزازه الأخذ بالمظاهر المصرية . فى أثناء اتصالاته اليومية بالمصريين كان يحافظ على العادات المصرية ويتبع الطريقة التى يتبعها المصريون فى حياتهم وكان يقابل زواره محافظاً على قواعد السلوك المصرية فيجلس وسطهم ويتابع مناقشتهم متغلباً على ما كان معروفاً عنه من نقاد الصبر وكان يتحدث اليهم فى أسلوب مشابه لأسلوبهم . مستعيراً من لغتهم التعبيرات المميزة لهذه اللغة .

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل إن نابوليون فكر فى أن يرتدى الثياب التى كان يرتديها المصريون إذ ذاك . وقد ارتداها فعلاً بمناسبة اعتزازه استقبال أعضاء الديوان ولكنه عدل عن ارتدائها فيما بعد بناء على نصيحة Tallien مما يرمز إلى ميله نحو التطبع بالطابع الشرقى والتأقلم مع الجو المصرى (٢)

(١) Charles Roux - P. 24

(٢) Roux - المرجع السابق - ص ٦٤ ، ٦٥ . وقد ذكر المؤلف أن بوناپارت

كان يستشير فى هذا الشأن اثنين من المستشرقين الفرنسيين هما ماجالون Magallon =

وأكثر من هذا وذلك . فقد ثبت أن بونا بارت قد فكر في اعتناق الاسلام تفكيراً جدياً . فكان يحمل معه أثناء غزوه لمصر ترجمة فرنسية للقرآن . وقد صرح بأنه لو اعتنق الدين الاسلامي فان جيشه سوف يتبعه في اعتناق دين المصريين . وأنه لم يعقه عن تنفيذ تلك الفكرة إلا اعتراضان اثنان فقط . هما ما يحتمه الدين الاسلامي من ختان الرجال ومن تحريم شرب النبيذ . وقد بلغ اعتقاده بسمو دين المصريين إلى حد أنه وعد ببناء جامع شاسع الأرجاء بحيث يسع جميع رجال جيشه ^(١) ولكن رغم هذا كله ثار المصريون على بونا بارت لأنه أجنبي . وصحت نبوءة الكاتب الفرنسي فولني Volney الذي كتب في عام ١٧٨٨ - أى قبل الحملة الفرنسية بعشرة أعوام - يقول « لسكى يستقر قرارنا في مصر يجب أن نشن ثلاثة حروب . الأولى ضد انجلترا . والثانية ضد الباب العالي والثالثة - وهي أشدهذه الحروب الثلاثة وأصعبها - ضد المصريين من سكان مصر » واقنع بونا بارت بصحة هذا الرأي بعد أن تم له غزو مصر فكتب يقول « أن نبوءة فولني كانت حقة فقد تطور موقفنا في مصر إلى مشكلة عويصة . فلما أن نجلو وإما أن نسالم الآراء الدينية السائدة في مصر لثلا نوضع بين أعداء الاسلام . والتجربة قد أثبتت أنه لكي نوضع بين أصدقاء الاسلام فانه لا يكفي أن نعلن من جانبنا صداقتنا له ^(٢) » وقد ثبتت حيوية الشعب المصري ثبوتاً قاطعاً بإصراره على المقاومة رغم تغلب الفرنسيين على المصريين وإخمادهم الثورات التي قامت خلال

== وفانتور ده بارادى، Venture de Paradis كما ذكر أن واقعة ارتداء بونا بارت للتياب المصرية رواها الضابط Detroye من سلاح المهندسين الملحق بقيادة الجنرال Caffarelli

(١) المرجع السابق - ٧٥ ، ٧٦ .

(٢) المرجع السابق - ص ٧٠ و ٧٣ .

النصف الأخير من عام ١٧٩٨ . إذ أن المصريين عادوا إلى المقاومة في العام التالي فتارت بلدة بردين بمديرية الشرقية في أول مارس سنة ١٧٩٩ والتحم أهلها بكتيبة من الجيش الفرنسي . وثارت بلدة كفور نجم وانضمت إلى أمير الحج مصطفى بك فذهب مع أهلها إلى ميت غمر وهاجموا سفن الفرنسيين يوم ٢٥ مارس سنة ١٧٩٩ . وأراد الفرنسيون الثأر من بلدة كفور نجم فالتحموا بأهلها يوم ٥ يونية سنة ١٧٩٩ ولكن المصريين انتصروا على الفرنسيين في هذه الموقعة . والتحم المصريون بالفرنسيين في دمنهور يوم ٢٤ أبريل سنة ١٧٩٩ فقتل المصريون جميع رجال الحامية الفرنسية وأراد الفرنسيون أن يثأروا فدارت موقعة ببلدة سنهور بمديرية البحيرة يوم ٣ مايو سنة ١٧٩٩ انتهت بانتصار المصريين .

ولم تقف مقاومة المصريين عند حد إلا بسبب توقيع معاهدة العريش في ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ التي تعهد فيها الفرنسيون بالجلء عن مصر فلما نقضوا شروط تلك المعاهدة عادت مقاومة المصريين فتارت القاهرة للمرة الثانية في ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ ثورة امتدت إلى ٢١ أبريل سنة ١٨٠٠ . وكان يتزعم هذه الثورة مصطفى البشتيلي . وبلغ عدد الثوار خمسين ألفاً . قاموا بالمعجزات أثناء تلك الثورة الى حد أنهم « صنعوا القنابل من حديد المساجد وفعلوا ما يصعب تصديقه ، ذلك أنهم صنعوا المدافع »^(١)

وبعد هذه المقاومة العنيدة اضطر الفرنسيون إلى الجلاء عن مصر نهائياً

بمقتضى الاتفاقية المحررة في ٣١ أغسطس سنة ١٨٠١

واستقرت الحالة في مصر بعد أن ولى المصريون عليهم محمد علي

(١) Martin « تاريخ الحملة الفرنسية في مصر » — وعبد الرحمن الرافعي

« تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر » الجزء الثاني ص ١٥٦ .

والياً بارادتهم . فاستردوا بذلك سيادتهم . رغم إرادة الدولة التي كانت -
من الوجهة النظرية - تعتبر مصر ولاية تابعة لها وهي الدولة العلية .
ولكنهم عادوا إلى المقاومة عندما هددت تلك السيادة بالخطر . وذلك لما
اتفقت الحكومة التركية مع الحكومة الانجليزية على عزل محمد علي باشا
الذي اختاره الشعب المصري . وكان من آثار ذلك الاتفاق تأليف جيش
بقيادة محمد بك الألفي - أحد أمراء المماليك - لمحاربة محمد علي . وقد وصل
ذلك الجيش إلى دمنهور في شهر سبتمبر سنة ١٨٠٦ فهب المصريون للدفاع
عن سيادتهم . وحاصر جيش محمد الألفي دمنهور فأبدى أهلها أقصى ضروب
الشهامة والجلد وكان دفاع أهلها وثباتهم من أهم الأسباب التي أحبطت
اتفاق إنجلترا وتركيا على خلع محمد علي ^(١)

وعاد المصريون إلى المقاومة بعد فترة وجيزة بمجرد أن تبينوا أن
سيادتهم معرضة للخطر . فقد حاولت إنجلترا غزو مصر فاتفقت مع محمد
الألفي . ونزلت الجيوش الانجليزية في الاسكندرية بقيادة الجنرال فريزر
ثم زحفت إلى رشيد وكان محافظها إذ ذاك على بك السلانكي . وأسرع
محمد علي باشا فأرسل اليه وإلى غيره من حكام الموانئ المصرية يعرض
استعداده لإرسال المدد ولكن أهالي رشيد أكدوا أنهم قادرون وحدهم
على صد الغزاة وقد تغلبوا فعلا على الجيش الانجليزي الزاحف في ٣١ مارس
سنة ١٨٠٧ فكان ذلك النصر المصري إيذانا بفشل الحملة الانجليزية

وعاد الانجليز يحاولون التغلب على مقاومة المصريين فالتقوا بهم في
الحمد يوم ٢١ ابريل سنة ١٨٠٧ وكان الانجليز بقيادة الجنرال ستيوارت

(١) De Vaulabelle - « مصر الحديثة » وعبد الرحمن الرافعي : تاريخ

واكن المصريين تغلبوا في الحماة كما تغلبوا في رشيد . واضطر الانجليز إلى توقيع الاتفاق الذي تحرر بين الجنرال Scherbrook وبين محمد علي في دمنهور يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧ وهو الذي تعهدوا فيه بالجلاء عن مصر .

٦ — وعاد المصريون يقاومون مقاومتهم التقليدية العنيفة لكل اعتداء على سيادتهم عندما ضرب الأسطول الانجليزي ميناء الاسكندرية بقنبله يوم ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ ويكفي الدلالة على مبلغ استماتتهم في هذه المقاومة ملاحظة تفوق القوات الانجليزية الغازية على قوات الجيش المصري إذ ذاك وهي تكاد لا تقارن بالمعدات الانجليزية العصرية التي أقبل بها الأميرال بوشان سيمور ومع ذلك فإن الجنود المصريين الذين كانوا مكلفين باطلاق مدافع قلاع الاسكندرية كانوا يؤدون واجبهم في العراء دون تفكير في الموت الذي كان يهددهم في كل لحظة إذ لم تكن تحميلهم دروع أو متاريس ومع ذلك فإنهم كانوا يستمرون في أداء واجبهم وسط الدخان الكثيف كأنهم أرواح أبطال سقطوا في ساحة الشرف ثم بعثوا مرة أخرى ليكافحوا العدو وقد أدوا جميعاً واجبهم من جنود ورجال ونساء على أتم وجه ولم تكن تستحهم إلا عاطفة الوطنية وإلا الحماسة التي تتأجج في صدورهم مع أن أحداً لم يفكر في آلامهم من قبل^(١) ولعل من أروع ما تميزت به مقاومة المصريين للغزاة عام ١٨٨٢ اشتراك النساء المصريات اشتراكاً فعالاً في تلك المقاومة إلى حد جعل الأجانب - وفي مقدمتهم المحامون الانجليز - الذين دافعوا عن احمد عرابي باشا - يقررون أن عرابي وجد في سيدات مصر أكبر معين على ثورته فقد ساعدته منذ

(١) John Ninet : Orabi وعبد الرحمن الرافعي « الثورة العرابية والاختلال

الخطوات الأولى مساعدات قيمة وظللن يقدمن تلك المساعدة حتى بعد أن فقد آخر أمل في انتصاره بل إن أميرات الأسرة الخديوية كن يعظمن عطفاً كبيراً على عرابي . ففي غداة يوم ضرب الاسكندرية بالقنابل أعلن في الوقائع المصرية أن والده الخديوي وابنته الأميرة جميلة قد تبرعنا بكثير من الجياد والعتاد والمدايا إلى جيش عرابي وتألقت عقب ذلك عدة جمعيات من السيدات المصريات مهمتها مساعدة ومواساة الجرحى الذين أصيبوا في موقعة كفر الدوار والاستعداد لمواجهة المواقع التالية إلى حد الاشتراك في الصفوف ذاتها^(١)

وقد أدهشت مقاومة المصريين للغزو الانجليزي جميع الذين اتصلوا بذلك المصر عن كثب إلى حد أن أحدهم قرر أن من الصعب على الرجل الانجليزي أن يفهم كيف أن العقليّة المصرية تصبح جبارة ومنتجة في ظل الارهاب وتحت سوط العذاب أكثر من أي وقت آخر^(٢)

وأخيراً عادت مقاومة المصريين تتجلى عقب إعلان الهدنة التي أعقبت الحرب العالمية الماضية عندما تبينوا أن الوعود التي قطعها ساسة الدول التي كسبت تلك الحرب بشأن حق الأمم الصغيرة في تقرير مصيرها لن تنفذ فثاروا ثورتهم عام ١٩١٨ واستمرت تلك الثورة إلى أن صدر تصريح ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢ من جانب إنجلترا باعلان استقلال مصر فلم يرضوا به لأنه لم يحقق كل آمالهم في السيادة الكاملة واستمرت مقاومتهم إلى أن وقعت معاهدة التحالف والصداقة مع إنجلترا في ٢٦ أغسطس عام ١٩٣٦ .

هذه خلاصة موجزة للفترات التاريخية التي تجلت فيها مقاومة المصريين

(١) Broadly : How we defended Orobi ترجمة مجلة « الجامعة » العدد ٢٤٦ الصادر في ١٥ سبتمبر سنة ١٩٣٨ .
(٢) Broadly — المرجع السابق — ترجمة مجلة « الجامعة » العدد ٢٤٨ الصادر في ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٣٨ .

للغزاة الذين مروا بوطنهم . تقطع في الدلالة على أن مصر لم تكن - على خلاف الخرافة الذائعة - مستعمرة في أية مرحلة من مراحل تاريخها - إلا في عصر الرومان - وعلى أن المصري لم يحن هامته ، ولم يقبل الضيم ، ولم يرض بذلك الاستعمار ، ولم يقبل أن تمس سيادته على أرضه طوال تاريخه المجيد^(١) ولعل خير رد على الذين يتبرأون من مصريتهم هو رد البارون شتاين Stein المفكر الألماني على قيصرة روسيا بعد تقهقر نابليون من روسيا فقد حدث عقب ذلك التقهقر أن قالت القيصرة - وهي من أصل ألماني إذ ولدت في وايتمبرج - بعد العشاء في قصرها بسان بطرسبرج « الآن إذا تمكن جندي فرنسي واحد من أن يتخطى الحدود الألمانية فإني سأخجل من أن أسمى ألمانية » فهض البارون شتاين واحمر وجهه حتى صبغت الحمرة عنقه وانحنى ثم قال « إن جلالتم قد ظلمت ظمماً عظيماً بالتفوه بمثل هذه الألفاظ عن شعب عريق وفي وشجاع لكم الشرف في أن تنتسبوا إليه كان يجب أن تقولوا « إنني لست خجولة من الشعب الألماني بل من إخوتي وأبناء أعمامى الأمراء الألمان : فلو أنهم أدوا واجبهم لما استطاع جندي فرنسي واحد أن يصل إلى نهر الألب أو الأودر ، ولما استطاع بالتالي أن يعبر نهر الدنيستر »^(٢)

فالمصري لم يقصر قط في أداء واجبه على مدى التاريخ . وإنما الذي قصر في أداء ذلك الواجب أحياناً هم بعض قادته . وهذا ما سوف نتلافاه في البرنامج الذي نعرضه في هذا الكتاب .

(١) من الباحثين المصريين الذين تنبهوا إلى هذه الحقيقة التاريخية المرحوم اليوزباشي حسن على الأضليجي من سلاح المهندسين الملكي المصري في دراسة له عن « البحر الأبيض المتوسط » بمجلة « الجيش المصري » العدد الرابع المجلد الثالث